

المؤتمر العالمي السادس
لبديع الزمان سعيد النورسي

العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور
(البحوث العربية)

ISBN: 975-6438-14-2

Publication: Söz Basım

Year: 2002, İstanbul

مفهوم العولمة والرد عليها في ضوء الفلسفة الأخلاقية لرسائل النور

د. عبد العزيز برغوث(*)

مقدمة

تعالج هذه الورقة المتواضعة جدا قضية مهمة للغاية ليس فحسب على المستوى الإسلامي ولكن بصورة ملحة على المستوى الإنساني وهي "قضية العولمة" ومخاطرها المتعددة والمتنوعة. فالبشرية بأكملها تعيش اليوم أوضاعا محرجة، ومنذرة بكثير من المخاطر، ومؤذنة بمستقبل غامض في كثير من جوانبه إن لم يُتدارك الأمر بسرعة وحكمة. وهذه المخاطر المحدقة بالإنسانية جميعا، وهذا المستقبل الغامض غير نابع في أصله من عدم وجود المنظور الكوني القادر على توجيه خطى الإنسان، ولكنه أساسا متأني من بعض التحكيمات الإنسانية المتعسفة التي تحاول فرض مقولاتها وإيديولوجياتها على باقي الإنسانية، وسائر الثقافات البشرية وخاصة المغلوبة على أمرها مثل عالمنا الإسلامي المعاصر. وقد عبر الإمام النورسي على هذا المنطق مشيرا إلى مخاطر المدنية الغربية غير المتوازنة بقوله: "إن دهائك المظلم قد قلب نهار البشرية ليلا، ذلك الليل البهيم بالجور المظلم، ثم تريد أن تنوري ذلك الظلام المخيف بمصاييح كاذبة مؤقتة... هذه المصاييح لا تبتسم لوجه الإنسان، بل تستهزى به، وتستخف من ضحكاته التي يطلقها ببلاهة وهو متمرغ في أوحال أوضاع مؤلمة مُبكية"¹. فهذا التعامل غير المتوازن مع الإنسانية، ومع البشرية عموما أدى إلى فوضى كبيرة انعكست على حياتنا المعاصرة وعلى واقعنا وحاضرنا وستنعكس على مستقبلنا.

(*) الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

والعولمة هذه الظاهرة الجديدة القديمة تحاول اليوم أن تضع أسئلة محرجة ومهمة وخطيرة على مصير الحضارة الإنسانية عامة، ومصير حضارة الإسلام بصورة خاصة. فالصراع الحضاري القائم اليوم على خطوط التماس والالتقاء بين المجتمعات، والحضارات، والثقافات يوحي لنا في كثير من الأحيان بالفوضى العارمة التي تنتشر في الدوائر المركزية الحضارية الكبرى التي تسعى إلى تحقيق هيمنتها وسيطرتها التامة على باقي النماذج الحضارية الأخرى. والعولمة في بعض جوانبها، وأبعادها تبدو وكأنها تجسّد لمنطق التفرق، والقوة، والصراع، والتصادم، والهيمنة على حساب منطق التوحد، والتعاون، والتلاقي، والتجاوز، والمشاركة في تسيير شؤون الحضارة الإنسانية.

ومما لاشك فيه أن المقولات حول العولمة متعددة، ومتنوعة، ومتغيرة، ومتميزة بصورة كبيرة. فمن الموالين والذائدين عنها إلى الراضين والمعارضين لها، ومن الإيجابيين حولها إلى السلبيين، ومن الموضوعيين في تصورها إلى الذاتيين في معالجتها، ومن المركزين على جوانبها المتعددة إلى الحاصرين لها في جانب واحد، ومن الناهجين والمستفيدين من خيرها والتاركين لشرها إلى الغافلين والتائهين بين شرها وخيرها، ومن أهل الخبرة فيها إلى المتحدثين فيها بغير علم ولا وعي ولا منهج ولا نظام، ومن العارفين بمفهومها وحقائقها وآلياتها إلى الخالطين لها بين المفاهيم.. فالحقيقة أن العولمة قد أصبحت موضوع الساعة الذي يتكرر في كل مجال وتقريبا في كل مكان.

ومؤتمرا هذا كذلك يعد مثالا آخر للنقاش والحوار الجاري حول موضوع العولمة وتشابكاتها. إلا أن ما يميز هذا المؤتمر عن الكثير من المؤتمرات أمرين أساسيين هما:

مسألة الأخلاق والعولمة

مسألة رسائل النور والأخلاق والعولمة. فقبل كتابتي لأفكار هذا البحث جرى بيني وبين بعض الباحثين حوار مطول دار حول مسائل يمكن تلخيصها في سؤالين: ما علاقة العولمة بالأخلاق وكيف تقحم الأخلاق في موضوع لا قرار له ونواياه معروفة وهي ضد الأخلاق؟.

ما علاقة الأستاذ النورسي ورسائل النور بموضوع العولمة؟ فلا النورسي ولا رسائل النور تحدثت عن موضوع العولمة؟ فلماذا إذن تقحمون الأستاذ النورسي في كل موضوع؟ وما عساه أن يقوله في موضوع جديد لم يُعهد بهذا المصطلح والمعنى في زمانه؟

فإذن كما قلت إن هذا المؤتمر يحاول أن يُدخل في أذهاننا مسألتين مهمتين، الأولى متصلة بموضوع الأخلاق وصلته بالعوامة، والثانية متصلة برسائل النور والعوامة. ولكي تتمكن من الإجابة المناسبة لابد لنا قبل أي شيء أن نرجع إلى رسائل النور ونطرح عليها السؤالين الحيرين وهما:

ما حقيقة العوامة في رسائل النور وما مخاطرها على عالم الإسلام المعاصر؟
ما حقيقة الأخلاق وصلتها بالعوامة في رسائل النور؟ ولكن قبل القيام بهذا التحليل ينبغي أن نجيب عن سؤال مبدئي أولي وهو: ما هو مفهوم العوامة في الأدبيات القائمة حالياً وما مخاطرها على العالم الإسلامي؟ حتى يتسنى لنا تمييز موقف ورأي ومقولة رسائل النور في الموضوع. فيتحصل من هذا الكلام أن نركز في موضوعات ثلاث هي:

أولاً: مفهوم العوامة ومخاطرها على العالم الإسلامي المعاصر؟

ثانياً: كيف ينبغي أن نفهم العوامة في رسائل النور؟

ثالثاً: الرد النوري على مخاطر العوامة والقيمة الحضارية للنسق الأخلاقي في رسائل النور.

ومما تجدر الإشارة إليه قبل البدء بتحليل هذه النقاط الثلاثة فكرة مهمة جداً أوردتها الإمام النورسي في رسائل النور عندما كان يتحدث عن القيم الحضارية والتاريخية والكونية العامة لرسائل النور. حيث يبدو وكأنه يتوقع دوراً حضارياً ضخماً وفعالاً لرسائل النور في مستقبل الأيام، ويعتقد أن رسائل النور ستتحول إلى بؤرة تركيز عالمي تجذب العلماء والمفكرين والحكماء في زمن تعيش فيه الإنسانية أخطر مراحل تطورها وأعقد مشكلاتها. فيقول الإمام النورسي رحمه الله: "إن أجزاء رسائل النور قد حلت أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم، ووضحتها وكشفتها وألجمت أعتى المعاندين الملحدون وأفحمتهم، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يظن بعيداً عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني، أثبتتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حظيرة الإيمان، فرسائل هذا شأنها لابد أن العالم - وما حوله - بأجمعه سيكون ذا علاقة بها، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل، وتأخذ جل اهتمامه، وأما سيف الماسي بتار في قبضة أهل الإيمان.."² إن هذا الكلام يبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك الدور

الحاسم الذي ستتؤديه رسائل النور في النقاش العالمي الذي يدور حول حاضر البشرية ومستقبلها، ويبين لنا كيف أن هذه الرسائل لها استيعاب خاص لواقعنا الحضاري المركب والمعقد. وستحاول الورقة إبراز بعض ما تستطيع أن تقدمه الرسائل لإنقاذ إيمان الأمة في عصر العولمة التي يعبر عنها النورسي بقوله: "أما الآن فقد تطورت وسائل النقل إلى درجة كبيرة بحيث أصبح العالم كالمدينة الواحدة، وغدا أهله في مداولتهم الأمور كأنهم في مجلس واحد."³

أولاً: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي

ينبغي لنا أولاً وقبل كل شيء أن نحدد ولو بصورة عامة مفهوم العولمة، لكي نتبين حقيقتها، وأبعادها، ومخاطرها⁴ على الفرد والمجتمع والحضارة والثقافة الإسلامية والإنسانية بصورة عامة. ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن تعاريف العولمة متعددة جداً، ومتنوعة بصورة تكاد لا تحصر. ويمكن أن تعرف العولمة بصورة عامة على أنها تلك الظاهرة التي برزت مع الأفكار الأساسية التي يشر بها النظام العالمي الليبرالي الجديد، وتعني رفع الحواجز الجغرافية والثقافية والاجتماعية، وانفتاح الثقافات والحضارات الإنسانية على بعضها البعض بسبب تأثير الثورة التقنية، والتكنولوجية، والاتصالية والمعلوماتية؛ بحيث تزداد كثافة وسرعة وحجم الاتصالات، والتعاملات، والنشاطات الإنسانية بصورة تؤدي إلى عولمة الواقع البشري، وجعل البشرية كلها تعيش في ظروف نفسية، وثقافية، واجتماعية، وحضارية توحد مصيرها وتعلم مشكلاتها. ففي ظل هذا التعريف العام للعولمة ذات الأبعاد السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والبيئية، والجغرافية، والعمرانية يصبح المجتمع الإنساني وحدة واحدة أو كما يسمونه بقرية الكرة الأرضية. ويقول أحد الضالعين في خبايا العولمة: "ربما تكون أحسن مقارنة لمفهوم العولمة هي تلك التي تحاول أن تحدد إلى أين تتوجه العولمة وما هي نهاياتها. وماذا سيكون حقاً تصورنا للمجتمع المعولم. أو كيف سيبدو العالم عندما يصبح معولماً. في العالم المعولم سيكون هنالك مجتمع إنساني واحد، وثقافة إنسانية واحدة تشغل العالم كله. هذا المجتمع وهذه الثقافة الإنسانية لن تكون بالضرورة متناغمة ومتكاملة بشكل تام، رغم أننا نستطيع أن نتصور ذلك. وبالأحرى سيتوجه هذا المجتمع وهذه الثقافة إلى

مستويات عالية من التمايز، والتعددية المركزية والفضوى. لن يكون هناك حكومة عالمية مركزية تنظيمية، ولن يكون هناك نسق متماسك من الصفات والتفاضلات الثقافية. ومهما يكن التوحيد الثقافي، فإن هذه الثقافة الموحدة ستبقى مجردة، وتعبر عن التسامح من أجل التنوع والاختيار الفردي. ومن الأهمية أن الجغرافية والحدود ستختفي باعتبارها مبدأ تنظيميا أساسيا للحياة الثقافية والاجتماعية، وسيكون هذا المجتمع الإنساني بدون حدود. في العالم المعولم سوف نكون غير قادرين على توقع الممارسات والتفاضلات الاجتماعية على أساس مواقع جغرافية. وبنفس الحد يمكن أن نتوقع العلاقات بين المناطق النائية تقع كما هو الحال بالنسبة للأفراد المتقاربن أو المتجاورين.⁵ وفي تحديد أحر للعولمة هناك تركيز على عرضها بأنها ضرورة لا مناص منها في التطور العام للوعي البشري وللحضارة الإنسانية. فإذا عندما نتحدث عن العولمة فإننا نتحدث عن تلك "العملية الاجتماعية التي بها تختفي تدريجيا أو تقل آثار الحدود الجغرافية على الممارسات الثقافية والاجتماعية، والتي بها كذلك يصبح الناس أكثر وعيا أنهم يتلاقون ويتفاعلون بصورة متزايدة."⁶ فإذا كان هذا التحديد للعولمة سليما بصورة عامة، فإنه لا يستطيع أن يفسر لنا بعض الأبعاد والآفاق التوسعية الفوضوية الخطيرة التي كثيرا ما لا تأخذ بعين الاعتبار مصالح وهموم الإنسان غير الغربي. وهذا الأمر يجعلنا نزيد في توضيح بعد مهم من أبعاد العولمة وهو الذي يمكن نعتة بالبعد الإيديولوجي الاستراتيجي التوسعي الذي يخدم مصالح دعاة العولمة بصورة خاصة. ويمكننا أن نلاحظ هذا البعد في التحديدات الآتية. أولا يقول أهم متخصصين في شؤون العولمة في كتابيهما "فتح العولمة": "ولا ريب في أن بيرر وغيره من رافعي راية العولمة، إنما يحاولون بما يختارون من عبارات وصور، الإيحاء بأن الأمر-العولمة- يتعلق بحدث شبيه بالأحداث الطبيعية التي لا قدرة لنا على ردها والوقوف بوجهها، أي أنها نتيجة حتمية لتطور تكنولوجي واقتصادي ليس بوسعنا إلا الإذعان له. والواقع أن هذا ليس إلا أثره. فالتشابكات الاقتصادية ذات الطابع العالمي ليست حدثا طبيعيا بأي حال من الأحوال، إنما هي نتيجة حتمية خلقتها سياسة معينة بوعي وإرادة. فالحكومات والبرلمانات هي التي وقعت الاتفاقيات وسنت القوانين التي ألغت الحدود والحوجز، التي كانت تحد من تنقل رؤوس الأموال والسلع من دولة إلى أخرى. فرجال الحكم في الدول الصناعية الغربية هم الذين خلقوا، ابتداء

من تحريرهم المتاجرة بالعملات الصعبة الأجنبية وعبر السوق الأوروبية المشتركة، وانتهاء بالتوسع المستمر لاتفاقية التجارة العالمية المسماة (الجات) بانتظام الحالة التي يعجزون الآن عن معالجتها.⁷ فإذا كان دعاة العولمة الحقيقيين يسعون جاهدين لتصويرها باعتبارها حدثاً كونياً، وقدراً تاريخياً لا مناص منه، فإنه من غير المنهجي ولا الموضوعي أن نغفل الأبعاد الأيديولوجية لها. والنص الآتي يقدم لنا صورة عميقة لهذا البعد الخطير في منطق العولمة. ثانياً: يقول مالكوم: "إنه من الواضح أن مفهوم العولمة موضوع للممارسة الأيديولوجية لأنها مثل الحداثة- المفهوم السابق المرتبط بها- تظهر وكأنها تبرر نشر الثقافة الغربية، وكذلك المجتمع الرأسمالي من خلال اقتراح أن هناك قوى قاهرة تعمل خلف نطاق التحكم الإنساني، والتي تقوم بتغيير العالم وتحويله. هذا الكتاب لا يحاول أن ينفي أو يخفي تلك الحقيقة التي تقول أن المرحلة الحالية للعولمة هي بدقة متصلة بالتصورات السابقة. إن العولمة هي النتيجة المباشرة لتوسع وهيمنة الثقافة الأوروبية عبر العالم عن طريق الأعمار الصناعية، والاستعمار والغزو الثقافي. إنها كذلك متصلة ذاتياً وأصلياً بنموذج التطور الرأسمالي كما هي مشمولة في المجالات السياسية والثقافية. مع هذا فإن هذا لا يعني أن كل زاوية في العالم يجب أن تصبح غربية ورأسمالية، ولكن كل نسق من الأنساق الاجتماعية أو توجه من التوجهات يجب أن يشكل موقعه في صلته مع الغرب الرأسمالي. وباستخدام عبارة روبرتسن يجب أن تنازل وتصبح نسبية قابلة للمرونة والتنازل عن قيمها الكبرى."⁸

فإذا ما أخذنا هذه التحديدات بعين الاعتبار فإننا نستطيع أن نرى الصورة الحقيقية للعولمة، ونستطيع أن نميز بين ما هو لا إنساني وسلي فيها، وبين ما هو إنساني وإيجابي. ولكن يبقى الأمر الهام والذي ينبغي أن نؤكد عليه جيداً وهو أن العولمة في عمقها المعرفي والتاريخي والسوسيولوجي والأخلاقي والمادي هي بلا شك فعل حضاري ثقافي غربي يحاول إعادة صياغة الكيان الحضاري للبشرية جميعاً وصبغه بالصبغة الغربية، وجعل النموذج الحضاري الثقافي الاجتماعي الغربي قانوناً يحكم حياة الإنسان، ويصوغ له أقداره ومصائره وتوجهاته، ويعيد ترتيب نظام القيم والعلاقات والمعرفة والسلوك على وفق الرؤية الكونية الغربية. ويستخدم الغرب في عملية عولمة الإنسان والحضارة والعالم الأدوات والوسائل السياسية والاقتصادية والمالية والمعرفية والتربوية والإعلامية

والتكنولوجية والعسكرية وغيرها. ويتغني الغرب من خلال عملية العولمة العالمية الكونية الشمولية إعادة تنظيم العالم بأشخاصه وأفكاره وأشياءه لينسجم في سيره مع المشروع الحضاري الغربي؛ بحيث تتمحور حركة البشرية ووعيتها الحضاري حول النموذج الرأسمالي الغربي الحر، وذلك لكي يتحقق امتداد واستمرار المركزية الغربية على الزمان والمكان والأشخاص والأفكار، وتتحقق هيمنته على وقائع التاريخ والحضارة والثقافة والتكنولوجيا والعلاقات البشرية في القرن الواحد والعشرين.

إن هذه المداخل التحليلية تستطيع أن توضح لنا خطورة العولمة في منطقتها وإطارها الحالي على العالم الإسلامي بصورة خاصة، وعلى العالم بصورة عامة. إن الغرض الأساسي من التحليل السابق هو أولاً رسم صورة واقعية لواقع العولمة، وثانياً التعرف على مخاطرها الكبرى على العالم كله، وثالثاً أن نعيد قراءة النص النوري باعتباره نصاً حياً حيويًا متصلًا مباشرة بمشكلات الإنسانية الراهنة، مستوعبًا تمامًا وبالصورة الكافية أطروحات العولمة، وعارفاً بجوهرها وأسبابها وأبعادها ومخاطرها. فمن هذا المدخل يحاول هذا البحث أن يعيد اكتشاف المقولات النورية فيما يتعلق بالعولمة ومخاطرها والحلول المطلوبة لتوجيهها وترشيدها. وستحاول الورقة فيما يأتي من الباحث التركيز على أمرين: أولهما: كيف تطرح رسائل النور مسألة العولمة وما شابها من الظواهر المادية والوضعية. وثانيهما هو الحل الذي تقدم رسائل النور لمسألة العولمة ومخاطرها.

ثانياً: المدخل النوري لفهم العولمة وإدراك مخاطرها

من الأهمية أن نكتشف مفهوم العولمة وحققتها ليس عن طريق البحث في صفحات رسائل النور عن هذه اللفظة أو المصطلح، ولكن عبر التحليل للوحدة المنهجية والعضوية للنص النوري في كليته. وعلى هذا الأساس ستحاول الورقة كشف أهم مدخل من مداخل فهم العولمة وأبعادها وأسبابها، وأثارها، ومخاطرها على الإنسان المعاصر عامة. ويمكن أن نختصر هذا المدخل في ما يسميه عالمنا الجليل النورسي "المعنى الحرفي والمعنى الاسمي". وبعد التعرف على هذا المفهوم يمكن تقديم صورة للعولمة كما تعبر عنها رسائل النور.

أ- مدخل المعنى الحرفي والمعنى الاسمي في فهم العولمة

يتحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عن مسألة المعنى الاسمي والمعنى الحرفي ويجعلهما من أهم الأفكار في رسائل النور. ونحن نستطيع أن نستخدم مفهومي المعنى الاسمي والحرفي للدلالة على أهم وأخطر بعد من أبعاد العولمة باعتبارها منتوجا إنسانيا نابعا عن تطور الذهنية الإنسانية وتوجهها وجهة معينة أوصلتها إلى الوضع الحالي من التأزم والفوضى والاختلال العام. وقبل أن نربط بين مفهوم المعنى الحرفي والاسمي ومفهوم العولمة نحاول ذكر تعريف النورسي لهما. فالمعنى الحرفي يعني النظر إلى الكون والأسباب، والمعجزات، والحوادث، والوقائع، والسنن، والآيات الإلهية الآفاقية والأنفسية "والموجودات التي- كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي من حيث دلالتها على الصانع. فيقول ما أحسن خلقه! ما أعظم دلالاته على جمال المبدع. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكائنات." ⁹ ويزيد النورسي في بيان حقيقة المعنى الحرفي بقوله: "فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أهما مسخرة لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله، وأما مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى كأما مرايا تعكس تلك التجليات أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي ويعزلها عن المعنى الاسمي من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها." ¹⁰ فالمعنى الحرفي إذن ذال على غيره وليس على ذاته، وإنما ذاته ونفسه ما هي إلا مرآة عاكسة لشيء أعظم من النفس وأعظم من الوجود وأعظم من الدنيا "أي أن (أنا) لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره؛ كالمرآة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف." ¹¹ فالإنسان والمجتمع الذي ينظر إلى الدنيا وإلى الحياة وإلى الحضارة بالمعنى الحرفي فإنه سيرى الأشياء والأمور على حقيقتها وبالتالي تنسجم خطاه مع مراد الله، وتتناغم أعماله وأقواله مع سنن الله وقوانينه لأنه ينظر إلى الوجود على أنه دليل على خالقه عز وجل. يقول النورسي: "فإذا تأملت في (أنا) بالمعنى الحرفي، صار لك عينا تفهمت ورأيت به كل ما في الكون، لأنه إذا جاءت المعلومات الآفاقية صادفت في الأنا ما يصدقها. فإذا فهمتها انتهت وظيفة أنا وربوبيته ومالكيتته المفروضة." ¹²

وأما إذا نظرنا إلى الأمور وعالجنا المشكلات الإنسانية بمنظور ونسق المعنى الاسمي، فإننا نكون أمام وضع مختلف تماما عن وضع المعنى الحرفي. ففي المعنى الاسمي نؤله

الأسباب، ونخلد إلى الدنيا، ونتناقل إلى الأرض، ونعتبر أن الحياة الدنيا هي خلاصة كل شيء وأن التطور المادي والترقي العمراني هو غاية الوجود كله. وبهذا ننظر إلى أنفسنا (أنا) على أنها كل شيء ومصدر كل خير، ونجعل من العقل إلهاً نحكمه ومن الفلسفة معارف عليا كلية توصلنا إلى كل ما نريد معرفته. فلا نرى وراء العقل ووراء الفلسفة شيئاً مفيداً. يقول النورسي: "وأما إذا نظرت إلى (أنا) بالمعنى الاسمي واعتقدته مالكا، وخنث في الأمانة دخلت تحت {وقد خاب من دساها} (الشمس: 10) إذ الأمانة التي تدهشت من حملها السموات والأرض والجبال هي (أنا) من هذه الجهة، إذ منها يتولد الشرك والشور والضلالات، إذ إذا تستر (أنا) عنك غلظ، حتى صار بلع وجودك فصار كلك أنا. ثم استغلظ بأنانية النوع والاستناد به فيصير شيطانا يبارز أمر صانعه ثم يقيس الناس، ثم الأسباب على نفسه فيقع في شرك عظيم." ¹³ فإذا ما نظر الإنسان إلى الحياة والكون والوجود بالمعنى الاسمي فإن نظرتة، وأفقه ينحصر في ذاته، ويدور حول أنه مهما حققت من الرقي المادي، ومهما تفجرت أمامه من عيون الحضارة وخيراتهما، فإنه يبقى دائما مسلوب الوعي الصحيح، فاقد الرشادة والهداية غارقا في الملذات والشهوات لا يكاد يرى وراءها شيئاً. "إن "أنا" الذي ليس له في ذاته إلا ماهية ضعيفة كأنه هواء أو بخار، لكن بشؤم نظر الفلسفة، ورؤيتها الأشياء بالمعنى الاسمي، يتميع. ثم بسبب الألفة والتوغل في الماديات والشهوات كأنه يتصلب، ثم تعتريه الغفلة والإنكار فتتجمد تلك "الأناية". ثم بالعصيان — لأوامر الله — يتكدر "أنا" ويفقد شفافيته ويصبح قائماً. ثم يستغلظ شيئاً فشيئاً حتى يتلغ صاحبه. بل لا يقف "أنا" عند هذا الحد وإنما ينتفخ ويتوسع بأفكار الإنسان ويبدأ بقياس الناس، وحتى الأسباب، على نفسه، فيمنحها فرعونية طاغية — رغم رفضها واستعاذتها منها — وعند ذلك يأخذ طور الخصم للأوامر الإلهية." ¹⁴ وبهذه الكيفية يجعل المعنى الاسمي الإنسان تائها في نفسه لا يكاد يدرك حقيقته وحقيقة رسالته الوجودية.

ب- العولمة كنتاج للمعنى الاسمي وجذور أزمة المدينة الغربية

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار فكرة المعنى الحرفي والمعنى الاسمي وأردنا تطبيقها على مسألة العولمة فإننا سندرك حقيقتها وجوهرها بصورة جالية. فالعولمة في جوانبها السلبية

ما هي إلا تجلي لاستحكام المعنى الاسمي والفلسفة الاسمية والرؤية الكونية الاسمية في الثقافة، والنفسية، والعقلية الغربية التي تقود الحضارة المعاصرة. فعملية الاستبدال للمعنى الحرفي بالمعنى الاسمي في الواقع الإنساني هو الذي أدى إلى خلق هذه الثقافة والنفسية والشخصية التي تحمل راية العولمة وتتبنى مشروعها ونهجها في الهيمنة على البشرية. فعندما تبنت المدينة الغربية هذا المنظور تشكلت ثقافتها، واصطبغت نفسيتها بعدة خصائص جعلت منها منبتاً ومنشأً خصبا للفوضى والاختلال والظلم الذي تعانيه البشرية اليوم من جراء أفكار العولمة ومخاطرها. يقول الأستاذ النورسي واصفا حقيقة المنظور الاسمي الذي تبنته الحضارة الغربية المعاصرة: "إن أسس المدينة الحاضرة¹⁵ سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها. فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. هدفها وقصدتها: منفعة خسيصة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الخيانة. دستورها في الحياة: الجدل والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد. ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، واشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائما: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنيا.¹⁶ فبهذا الوصف الدقيق للرؤية الكونية الغربية وخصائصها الثقافية نجد الأستاذ النورسي قد حدد المدخل الأصيل والصحيح كذلك لإدراك حقيقة العولمة باعتبارها منتج لهذه الثقافة والرؤية والحضارة. ومن هذه التحديدات يقدم لنا النورسي صورة عميقة ومعبرة عن حقيقة العولمة وطبيعة العقل الذي أنتجها ونوعية الثقافة التي تقف وراءها، كما يقدم لنا أمثلة واقعية لما تفرزه هذه الظاهرة وما تتركه في واقع الناس. يقول الأستاذ النورسي: "إن المدينة الغربية الحاضرة لا تلقي السمع كليا إلى الأديان السماوية لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهميج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات. زد على ذلك فقد ألفت -بذلك- الإنسان المحتاج المسكين

في أحضان الكسل والتعطيل المدمر، بعد أن شجعتة على وسائل السفاهة. وهكذا بددت الشوق لديه إلى السعي والعمل، فأضاع الإنسان عمره الثمين سدى باتباعه هوى المدنية الحاضرة وبسيره وراء سفاهتها ولهوها. زد على ذلك فقد ولدت المدنية في ذلك الإنسان المعوز العاطل أمراضا وأسقاما وعللا، إذ أصبحت وسيلة، إلى انتشار مئات من الأوبئة والأمراض في أرجاء المعمورة بنتها في الأوساط بسوء الاستعمال والإسراف. فضلا عن هذه العلل الثلاثة التي ولدتها المدنية وهي الحاجة الماسة والميل إلى السفاهة، وكثرة الأمراض المذكورة بالموت، فإنه بتفشي الإلحاد وتوغله فيها استيقظت البشرية من غفوتها، وإذا بالمدنية تهددها باستمرار، بإظهار الموت تجاهها إعداما أبديا، فجرعتها نوعا من عذاب جهنم في الدنيا.¹⁷ وبعد هذا التوصيف الدقيق العميق يورد لنا الأستاذ النورسي تصويرا دقيقا عن واقع العولمة وكيف ألما تحولت إلى مصدر للهم والغم إذا لم نتداركها بالتوجيه والترشيد المطلوب. يقول الأستاذ النورسي: "كان البشر في عهد البداوة تعوزهم ثلاثة أو أربعة أشياء، وكان إثنان من كل عشرة أشخاص يعجزان عن تدارك تلك الأشياء الثلاثة أو الأربعة. بينما في الوقت الحاضر تحت سطوة المدنية الغربية المستبدة، المتميزة بإثارة سوء الاستعمال، والدفع إلى الإسراف، وتهيج الشهوات، وإدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكم المطالب والحاجات الضرورية؛ فقد أصبح الإنسان العصري من حيث حب التقليد والإدمان مفتقرا إلى عشرين حاجة بدلا من أربع منها ضرورية. وقد لا يستطيع إلا شخصان من كل عشرين شخص أن يلبوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال بشكل مباح. ويبقى الآخرون الثمانية عشر محتاجين وفقراء. فهذه المدنية الحاضرة إذا تجعل الإنسان فقيرا جدا ومعوزا دائما، ولقد ساءت البشرية- من جهة تلك الحاجة- إلى مزيد من الكسب الحرام، وإلى ارتكاب أنواع من الظلم والغبن، وشجعت طبقة العوام المساكين على الصراع والتخاصم المستمر مع الخواص، ذلك بهجرها القانون الأساس الذي سنه القرآن الكريم القاضي بوجوب الزكاة وتحريم الربا والذي يحقق بواسطتهما توقيير العامة للخاصة، ويوفر بهما شفقة الخاصة على العامة. فبهجرها ذلك القانون الأساس أرغمت البرجوازيين على ظلم الفقراء وهضم حقوقهم، وأجبرت الفقراء على العصيان والتمرد في معاملتهم معهم. فدمرت سعادة البشرية وراحتها وأمنها واطمئنانها وجعلتها أثرا بعد عين.¹⁸ كما يقدم

لنا الأستاذ مثالا واحدا من الوسائل البسيطة التي تروج لمشروع العولمة ويبين لنا كيف أن هذه الوسيلة على الرغم من بساطتها وقدمها فإنها في عصر العولمة تؤدي إلى دفع الناس لارتكاب ملايين الأثام ناهيك عن الوسائل الجديدة التي أنتجتها الحضارة الغربية. يقول الأستاذ النورسي: " فمثلا: لقد فهم من وجوهها المتعددة، بجهاز الراديو الموجود لدي. حيث أن شخصا واحدا يرتكب مليوناً من الكبائر دفعة واحدة بكلمة واحدة، يتفوه بها في الراديو، فيقحم ملايين المستمعين له في الذنوب. نعم، إن جهاز الراديو ينطق بلسان واحد، إلا أنه يدفع مئات الألوف من الكلمات في الهواء دفعة واحدة. فبينما ينبغي أن يملأ هذا الجهاز - الذي هو نعمة إلهية عظيمة - ذرات الهواء قاطبة، بالحمد والثناء والشكر لله سبحانه وتعالى، إلا أن سفاهة البشر المتولدة من الضلالة تستعمل هذا الجهاز بما يخالف الشكر والحمد لله. فلا جرم أنه سيعاقب عليها."¹⁹

إن الحضارة الغربية المعاصرة التي تبشر بالعولمة وتعمل على نشرها بسرعة في العالم قد أسهمت في خلق واقع اجتماعي وثقافي واقتصادي وسياسي يُقسم فيه العالم إلى الفقراء والأغنياء وإلى الأثرياء والمعدومين وإلى الأقوياء والضعفاء أو المتجبرين والمستضعفين. يقول النورسي رحمه الله: " ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمئة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة موهبة وزائفة. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علما أن السعادة تكون عندما تصبح عامة لكل أو للأكثرية؛ بيد أن سعادة هذه المدنية لأقل القليل من الناس."²⁰ إن ما يذكره الأستاذ النورسي وصف دقيق وعميق وصحيح لما آلت إليه البشرية تحت أوضاع العولمة ومصداقا لهذا الكلام الذي ذكره الأستاذ قبل نصف قرن أو يزيد نورد هذا النص الذي يتضمن حقائق مرعبة عن العولمة. يقول خبيرين من خبراء العولمة واصفين لحقيقتها: " يتزامن التكامل العالمي مع انتشار نظرية اقتصادية ينصح بها عدد كبير من الخبراء والاستشاريين الاقتصاديين، ويقدمونها دونما كلل أو ملل للمسؤولين عن إدارة دفة السياسة الاقتصادية على أنها النهج الصحيح: إنها الليبرالية الجديدة. والمقولة الأساسية لهذه النظرية الجديدة هي ببساطة: (ما يفرزه السوق صالح، أما تدخل الدولة فهو طالح). وانطلاقا من أفكار أهم ممثل لهذه المدرسة الاقتصادية، الاقتصادي الأمريكي ملتون مريدمان، اتخذت في الثمانينيات الغالبية العظمى من الحكومات الغربية هذه الليبرالية النظرية منارا تهتدي به في

سياساتها. وهكذا صار عدم تدخل الدولة إلى جانب تحرير التجارة وحرية تنقل رؤوس الأموال، وخصخصة المشروعات والشركات الحكومية، أسلحة استراتيجية في ترسانة الحكومات المؤمنة بأداء السوق، وفي ترسانة المؤسسات والمنظمات الدولية المسيرة من قبل هذه الحكومات، والمتمثلة في البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. فقد غدت هذه المؤسسات الوسائل التي تحارب بها هذه الحكومات في معركتها الدائرة رحاها حتى الآن من أجل تحرير رأس المال. فسواء تعلق الأمر بالملاحة الجوية أو الاتصالات ذات التقنية العالية أو بالمصارف وشركات التأمين، أو بصناعة البناء وتطوير برامج الكمبيوتر، لا بل حتى بالقوة العاملة، فإن هذه كلها وكل شيء أو شخص سواها لابد أن يخضع لقانون العرض والطلب... وهكذا أخذت البلدان التي تعتبر حتى الآن بلدان الرفاهية تستهلك رأسمالها الاجتماعي، الذي ضمن لها حتى الآن الوحدة والتماسك، بخطى سريعة جدا تفوق حتى الخطى التي تُدمر بها البيئة. ويدعو الاقتصاديون والسياسيون الليبراليون الجدد العالم للاقتداء بـ "النموذج الأمريكي"، إلا أن واقع هذه الدعوة مريب وشبيه بالدعاية التي كانت تطلقها حكومة ألمانيا الشرقية، حينما كانت تقول عن نفسها إنها ستبقى تتعلم الانتصار من الاتحاد السوفيتي دائما وأبدا. فليس هناك مكان آخر يبدو فيه التدهور بينا للعيان كما هو بين في الوطن الأصلي للثورة الرأسمالية المضادة: الولايات المتحدة الأمريكية. فالجريمة اتخذت هناك أبعادا بحيث صارت وباء واسع الانتشار. ففي ولاية كاليفورنيا -التي تحتل بمفردها المرتبة السابعة في قائمة القوى الاقتصادية العالمية- فاق الإنفاق على السجون المجموع الكلي لميزانية التعليم. وهناك 28 مليون مواطن أمريكي، أي ما يزيد عن عُشر السكان، قد حصنوا أنفسهم في أبنية وأحياء سكنية محروسة. ومن هنا فليس بالأمر الغريب أن ينفق المواطنون الأمريكيون على حراسهم المسلحين ضعف من تنفق الدولة على الشرطة.. ولكن أوروبا واليابان، وكذلك الصين والهند، هي الأخرى تتفتت وتنقسم إلى قلة قليلة من الراجين وأغلبية ساحقة من الخاسرين. فما تفرزه العولمة من تقدم ليس، من منظور مئات الملايين، تقدما. ولا مرء في أن الأمر قد بدا لهم مدعاة للسخرية عندما لاحظوا أن رؤساء حكومات مجموعة الدول الاقتصادية الكبرى السبع، قد جعلوا شعارا: "لتكن العولمة انتصارا لمنفعة الجميع" المنار الذي يهتدون به في اجتماعهم في نهاية شهر يونيو من 1996م. وهكذا

ينصب استنكار الخاسرين على الحكومات، والسياسيين الذين تتآكل باستمرار سلطتهم وقابليتهم على إحداث التغييرات المطلوبة. فسواء تعلق الأمر بتحقيق العدالة الاجتماعية أو بحماية البيئة، أو الحد من سلطة وسائل الإعلام أو بمكافحة الجريمة العابرة للحدود، صارت الدولة، إذا ما أرادت تحقيق هذا أو ذاك بمفردها مرهقة مثقلة الكاهل، وإن أرادت تحقيقه بمشاركة وتعاون دوليين فإن حصيلة ذلك هو الفشل والإخفاق دائماً. وهكذا نلاحظ أن هناك ملايين من أبناء الطبقة الوسطى الخائفة قد صاروا منذ أمد ليس بالقصير، يعتقدون أن خلاصهم يكمن في كراهية الغرباء وفي الانكفاء على الذات والعزلة عن السوق العالمية. وبالتالي فقد صار رد فعل المعزولين يتجسد في عزل الآخرين... ولا مرء من أن مجتمع الـ(20) إلى (80)، أي مجتمع الخمس الثري الذي تتخيله النخبة المجتمعة في فندق فيرمونت، ينسجم مع المنطق التكنولوجي والاقتصادي الذي باسمه يعمق قادة المؤسسات الصناعية والحكومات العولمة... فبواسطة الصور الموحدة على شاشات مليار من أجهزة التلفزيون تتشابه الأحلام والأمان، على ضفاف الأمور ويانغ تسه والأمازون والغانج والنبيل. لقد اقتلعت الأطباق المستقبلية لما ترسله الأقمار الصناعية وكذلك مولدات الكهرباء العاملة بالقوة الشمسية في المناطق النائية غير المربوطة حتى الآن بالشبكة الكهربائية، كما هو الحال في النيجر في غرب أفريقيا، ملايين من البشر من حياتها القروية رامية بهم في خضم أبعاد فلكية كما قال برتراند شنايدر الأمين العام لنادي روما. وبهذا فإن المعركة الدفاعية التي يشنها الحاكمون في الصين ضد رسائل الفاكس والبريد الإلكتروني، ومحطات البث التلفزيوني لم يعد القصد منها الوقاية من نسق اجتماعي مختلف، بل هي تهدف إلى المحافظة على ما يتمتعون به من سلطان... ولأول مرة في التاريخ صارت البشرية وحدة واحدة في تخيلها للوجود... ولكن لم استطاع أسلوب الحياة السائد في كاليفورنيا أن يغزو العالم ولم انتصر دزني على كل شيء آخر؟... إن سبب نجاح "استعمار والت دزني للثقافة العالمية"، حسب ما يعتقد باير، في ظاهرة قديمة قدم الحضارة: إنها المنافسة بين الشاق والسهل، بين البطيء والسريع، بين المعقد والبسيط. فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتائج ثقافي يدعو للإعجاب والإكبار، أما كل ثان من هذه الأزواج فإنه يتلاءم مع لهونا وتعبننا وحمولنا. إن دزني ومكدونالدز وMTV تروج لما هو سهل وسريع وبسيط. وسواء أكان آيزنر أو

باير على صواب في تفسير أسباب انتصار هوليود فإن حصيلة هذا النجاح بينة واضحة يراها المرء في كل أرجاء المعمورة... ولكن ومع هذا كله، يظل هذا التنقل مؤشرا للمستقبل الذي سيكون عليه العالم. فكل المؤشرات تؤكد أنه ستكون هناك شبكة إلكترونية كثيفة وأجهزة تليفون تبث عبر الأقمار الصناعية، ومطارات رائعة الإنجاز وطابور من عربات النقل لدى المصانع والمؤسسات تربط، في مطلع القرن القادم، ما يقرب من ثلاثين مدينة مبعثرة في أرجاء المعمورة -وتفضل بينها مسافات شاسعة، وتضم ما بين ملايين ثمانية ملايين وخمسة وعشرين مليون ساكن... والواقع أن هذا هو ما تحقق الآن، فالمراكز الاقتصادية في آسيا في سباق دائم. ومعنى هذا هو أن الشبيبة قد صارت تعيش، في كل القارات بمدن ذات طبيعة مختلفة كلية مقارنة بما عاشه الآباء.²¹

هذا وصف بسيط لصورة المعقدة للعولمة وآفاقها المقبلة. فما لم ندرك مسألة العولمة في إطار ما أسماه الأستاذ النورسي بالمعنى الاسمي فإننا سنبقى دائما ننظر إلى المسألة بصورة سطحية لا نرى من خلالها عمق الأزمة وعمق المشكلة الخطيرة التي تواجهها البشرية. فكل المآسي المشار إليها في النص السابق ما هي إلا نتاج مباشر للشخصية والعقلية التي تتبنى النظرة الاسمية للحياة والدنيا والعالم والحضارة. ويزيد الأستاذ النورسي في بيان جوانب أخرى لهذه الشخصية الاسمية التي أنتجت العولمة وأوصلت الإنسانية إلى هذا الوضع وذلك بإعطائنا أسباب أخرى لما آلت إليه الإنسانية من أمراض يقول النورسي: " أن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة، كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضاً. كما أثبت ذلك في (إشارات الإعجاز). الكلمة الأولى: (إن شبعت، فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع). الكلمة الثانية: (اكتسب أنت، لاكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا).

نعم، انه لا يمكن العيش بسلام ووثام في مجتمع إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء، وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، وإطاعة العوام واحترامهم للخواص. فالآن، أن الكلمة الأولى قد سافت الخواص إلى الظلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانية العوام إلى الحقد والحسد والصراع. فسلبت البشرية الراحة والأمان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث أوربا الجسام بالصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال كما لا

يُنْفَى على أحد. فالمدينة بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الأخلاقية وبكل وسائل نظامها وانضباطها الصارم عجزت عن أن تصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن أن تضمّد جرحي الحياة البشرية الغائرين. أما القرآن الكريم فإنه يقلع الكلمة الأولى من جذورها، ويداويها بوجوب الزكاة. ويقلع الكلمة الثانية من أساسها ويداويها بجرمة الربا.²² فهذا مثال واحد يبين لنا كيف أن المدينة المعاصرة قد تاهت عندما تبنت المعنى الاسمي بدلا من المعنى الحرفي وكيف نشرت كل أنواع الرعب والإرهاب والخوف، فتحولت الحياة معها إلى جحيم. وفي هذا السياق نجد النورسي يعنى على هذا التوجه ويتوقع نهاياته وفساده لأنه لا ينسجم مع سنن الله ولا مع نواميس الكون. ويحاول أن يقدم لنا توصيفا للخطأ الذي وقعت في هذه المدينة التي أنتجت العولمة وأنتجت هذا الواقع البشري المتأزم. يقول النورسي: "فلا أخطب في هذه المحاورة - هذا القسم من أوروبا. وإنما أخطب أوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهّمت مساوئها فضائل. فسافت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة. ولقد خاطبت في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوروبية بعد أن استثنت محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة، فوجهت خطابي إلى تلك الشخصية التي أخذت بيدها الفلسفة المضرة التافهة والحضارة الفاسدة السفهية.. وخاطبتها قائلاً: يا أوروبا الثانية! اعلمي جيداً أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدينة المضرة السفهية، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شئت يداك، وبست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون. أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود! ترى هل يمكن أن يسعد إنسانٌ بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترقله في زينة ظاهرة حادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟! ألا ترين أن مَنْ يئس من أمر جزئي، وانقطع رجأؤه من أمل وهمي، وخاب ظنه من عمل تافه، كيف يتحول خياله العذب مُراً علقماً، وكيف يتعذب مما حوله من أوضاع لطيفة، فتضيق عليه الدنيا كالسجن بما رحبت!. فكيف بمن أُصيب بشؤمك بضررات الضلالة في اعماق أعماق قلبه، وفي أغوار روحه، حتى انقطعت - بتلك الضلالة - جميع آماله، فانشقت عنها جميع آماله، فأى سعادةٍ يمكنك أن تضمّني لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل

يمكن أن يُطلق لمن روحه وقلبه يُعذبان في جهنم، وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة.. أنه سعيد؟.. لقد أفسدت - أيتها الروح الخبيثة - البشرية حتى طاشت بتعاليمك، فتقاسي منك العذاب المرير، بأذقتك أياها عذاب الجحيم في نعيم جنة كاذبة.²³ هكذا يبين لنا النورسي الأزمة الروحية والأزمة الأخلاقية التي آلت إليها الحضارة الغربية المعاصرة، وبالتالي فليس من العجب ولا المستبعد أن تنتج لنا العولمة التوسعية والاستعمارية التي تريد أن تركز هيمنة النموذج الليبرالي الغربي وتكرسه في حياة المجتمع كلها. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أن تحليل النورسي لأزمة الحضارة الإنسانية والمدنية الغربية بصورة خاصة إنما تتم ضمن ما أسماه بالنظرة الاسمية أو المعنى الاسمي للوجود. وبيانا لهذا التوجه في رسائل النور يقول النورسي رحمه الله:

"فيا أوروبا! ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا رب كل شئ وخالقه، إذ أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة! وقسمت ملك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التي تُعبد من دون الله.. فانطلاقاً من هذه الزاوية التي ينظر منها دهاؤك الأعور يضطر كل ذي حياة وكل إنسان أن يصارع وحده ما لا يعد من الأعداء، ويحصل بنفسه على ما لا يجد من الحاجات، مما يملك من اقتدار كذرة، واختيار كشعرة، وشعور كلمعة تزول، وحياة كشعلة تنطفي، وعمر كدقيقة تنقضي، مع أنه لا يكفي كل ما في يده لواحد من مطالبه. فعندما يصاب - مثلاً - بمصيبة لا يرجو الدواء لدائه إلا من أسباب صم، حتى يكون مصداق الآية الكريمة {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} (الرعد: 14)."²⁴

فبهذا العمق والنظرة إذن تقدم لنا رسائل النور المدخل الأصيل والصحيح ليس فقط لفهم العولمة ولكن كذلك لفهم مشكلات الإنسانية عموماً. وبعد أن بينا بصورة مختصرة مدخل رسائل النور في النظر إلى مسألة العولمة، وأوضحنا ما لفكرة المعنى الاسمي والحرفي من فائدة في إدراك حقيقة المشكلة الإنسانية والأزمة الحضارية التي تواجهها البشرية في عصر العولمة يبقى لنا أن نبين ما هو المدخل الأساسي لعلاج هذه الأزمة والرد على تحدي العولمة الذي يكاد يطبق على البشرية جميعاً بتياره المتعاطم. والذي يقرأ جيداً رسائل النور ويتعمق فيها ويكتشف منهجها العام يستطيع أن يدرك أن أي مدخل لمواجهة مسألة العولمة أو غيرها من المشكلات التي تواجه الإنسانية ينبغي أن يدور حول

"المسألة الأخلاقية". فسؤال الأخلاق في نسق رسائل النور ووجهتها العامة هو المدخل الأساسي لمعالجة أدواء وأسقام الإنسان المعاصر. ولكن حين نتحدث عن المسألة الأخلاقية عند النورسي فإننا لا نتحدث عنها وفق منطق الفلسفة الوضعية أو المادية أو الطبيعية. ولكن نتحدث عن الأخلاق وفق ما سماه النورسي بالمعنى الحرفي. وحين ننظر إلى المسألة الأخلاقية على وفق المعنى الحرفي فإننا نجد أنها وبدون منازع هي المدخل الصحيح لمعالجة المشكلات الإنسانية. وفيما يأتي بيان لمفهوم ودور المسألة الأخلاقية في مواجهة تحدي العولمة والرد على تيارها السليبي المتعاطف الذي حاول حياة الملايين إلى يأس، وأصبح الكثير من الناس لا يشعرون بالأمان أمام هذه الأوضاع المتردية. وقد عبر النورسي على مثل هذه النتيجة الأخلاقية المؤسفة بقوله: "فلا جرم أننا نعاني نتيجة هذا الخطأ الفادح غلظة القلب وقسوته، وانقباض الروح وظلمتها، المؤدية بمجموعه إلى تعكير صفو الأخلاق، وتلوث نقاوة الروح.. وفوق هذا تمضي حياتنا رتيبة مملّة يائسة خاوية المعنى."²⁵

ثالثاً: القيمة الحضارية للنسق الأخلاقي النوري والرد على العولمة

لا شك بأن الذي يطلع على رسائل النور بقلب مخلص، وعقل منفتح، وبصيرة نافذة سيصل إلى حقيقة أساسية وجوهرية هي أن رسائل النور في مجملها وكتبتها وشموليتها وجامعيتها درس أخلاقي إيماني كوني استخلافي إنساني عميق. وعندما يلج هذا القارئ المخلص والواعي مسالك رسائل النور، ومدخلها النورانية القرآنية المعنوية سيتأكد تماماً أن المسألة الأخلاقية تمثل المحور المركزي والمركز المحوري للدرس النوري وخطابه بصورة عامة. يقول الإمام النورسي رحمه الله: "فكيف إذن يعد جرماً أو ذنباً قراءة رسائل النور وهي مؤلفات تعد في الذروة من ناحية تدريسها وتلقينها للأخلاق الفاضلة والحقائق الإيمانية."²⁶

وليس من قبيل المصادفة أو الرجم بالغيب أو الارتجال الفوضوي أن تتموقع المسألة الأخلاقية في هذا الموضع الخطير والمتميز ضمن اهتمامات الخطاب النوري، ولكن طبيعة الدرس النوري، وصلته الوثيقة بالقرآن الكريم، وبالنموذج النبوي الأخلاقي العظيم قد فرضا على رسائل النور أن تتجه هذه الوجهة الأخلاقية، وأن ترفع بقوة ثقل المسألة

الأخلاقية مبنية دورها في البناء الحضاري للبشرية، وفي الصيرورة العامة للحضارة الإنسانية. فقد أكدت لنا الخبرة الإنسانية، والمعارف الحضارية البشرية أن المسألة الأخلاقية هي أس أساسيات الأفعال الحضارية، والتاريخية المتوازنة في المسيرة الإنسانية، التي كان قادتها الحقيقيون هم الأنبياء والمرسلون من أول نبي عليه الصلاة والسلام إلى آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانت أعظم معجزاته المشهودة على المستوى التاريخي والحضاري والاجتماعي هو أخلاقه التي جعلت منه رحمة لعالمين. يقول الإمام النورسي: "أما طريق أهل الهداية والمسلك السامي للأنبياء (عليهم السلام) وفي المقدمة حبيب رب العالمين، الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فهي: وجودية وإيجابية وتعمير، كما أنها حركة واستقامة على الطريق والحدود، وهي تفكر بالعقبي، وعبودية خالصة لله."²⁷ والذين يسيرون في مسار النبوة وأخلاقها، ويتبنون المعنى الحرفي في حياتهم إنما يرون أن للحياة غايات أخلاقية عظيمة، وأن الأخلاق هي أساس الحياة الصالحة. أو كما يقول النورسي: "بينما الذين هم في مسار النبوة: فقد حكموا حكما ملؤه العبودية لله وحده، وقضوا: أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة- التي يأمر بها الله سبحانه."²⁸

فإذن ليس من العيب أن تشغل المسألة الأخلاقية هذا الحيز والموقع في الدرس النوري. فالقيمة الخلقية، والبناء الأخلاقي، والتوجيه الأخلاقي أصبح مع رسائل النور لازمة جوهرية من لوازم الإنقاذ الحضاري لإيمان البشرية، ولخدمة الإيمان والدين والحقيقة القرآنية.²⁹ ومن هذا المنطلق نلفي رسائل النور ترسم لنا صورة أخاذا وعميقة وصادقة عن الحقيقة الأخلاقية للعالم الإسلامي، وعن العمق الأخلاقي للأمة الإسلامية. حيث تشير رسائل النور إلى تلك الفضائل، والقيم، والأخلاق العالية للفرد، والأسرة، والجماعة، والمجتمع، والأمة الإسلامية في ذاتها وفي صلاتها مع الآخرين، ومع الآفاق الكونية المحيطة بنا، ومع كل المخلوقات الأخرى، فتبرز لنا رسائل النور البعد الإيماني الإحساني للأخلاق الإسلامية ليس باعتبارها أخلاقا نظرية فلسفية مادية وضعية، ولكنها أخلاق إيمانية شرعية عملية اجتماعية مؤثرة في الصلة بين العبد وربّه، وبين العبد وأخيه، وبين العبد والكون المحيط به. فمصدر الأخلاق الإسلامية هي الحقائق القرآنية ذاتها

مجددة في الواقع، ولهذا السبب نجد النورسي يقول: "وكذا فإن أيسر الطرق في الأخلاق الإنسانية وأنفعها وأقصرها وأسلمها هي في الصراط المستقيم." ³⁰ ورسائل النور حين ترسم لنا الصورة الآخذة للجانب الأخلاقي في حياة الأمة والعالم الإسلامي لا تنزع منزعا فلسفيا نظريا، ولكنها تتوجه نحو القلب، والبصيرة، والوعي، والسلوك، والنفس لتحرك الوجدان كله، والوعي كله لتلقى الحقيقة القرآنية الإيمانية النورانية كما هي في الخطاب القرآني المهمين والمعجز. فالأمة الإسلامية الحقبة أمة أخلاقية لأنها تبني النظرة الحرفية في الحياة والاعتقاد والفكر والسلوك والعمل، وعلى هذا الأساس فإن الحضارة والمدنية التي تشكلها الشريعة المحمدية الحرفية هي مدنية متوازنة ومتناغمة مع طبائع الفطرة ومنسجمة مع سنن التاريخ. وفي هذا السياق يصف لنا النورسي طبيعة المدنية التي تنشأ عن النظرة الحرفية الأخلاقية فيقول: "أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها: فإن نقطة استنادها: الحق بدلا من القوة، والحق شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة شأنها: المودة والتجاذب. جهة الوحدة فيها: الرابطة الدينية والوطنية والصنافية بدلا من العنصرية والقومية، وهذه الرابطة شأنها: الأخوة المخلصة والمسالمة الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي. دستورها في الحياة: التعاون بدلا من الجدل والصراع، والتعاون شأنه: الاتحاد والتساند. وتضع الهدى بدلا من الهوى، والهدى شأنه: رفع الإنسان روحيا إلى مراقي الكمالات." ³¹ والأمة الإسلامية والعالم الإسلامي في عمقه الأخلاقي ينبغي أن يكون هو التجسيد العملي لهذا الدرس الأخلاقي الذي لخصته رسائل النور تلخيصا عميقا مستنبطا من الدرس الأخلاقي القرآني والدرس الأخلاقي التطبيقي النبوي. ونظرا لأهمية المنهج النوري في النظر إلى المسألة الأخلاقية فإنه من الأهمية أن نبين الأسس التي استندت إليها رسائل النور في تصور المسألة الأخلاقية. ويمكن تلخيص هذه الأسس في:

الأساس الإيمان والتوحيدي للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن عزل المسألة الأخلاقية عن موضوع الإيمان وحقائقه والتوحيد وقيمه. فالأخلاق في المنظور الإسلامي تنبع من الإيمان ومن التوحيد الخالص الذي يربط الصلة الأخلاقية المتوازنة بين العبد وربّه. فالإيمان الصحيح هو الذي ينظم ويوجه نظام الأخلاق ويرشده بصورة متوازنة وفعالة.

الأساس الشرعي والتكليفي للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن عزل الأخلاق عن الشريعة الإسلامية ومقاصدها التكليفية العملية. حيث تعتبر الشريعة ومقاصدها أعظم نظام أخلاقي تنزل على البشرية. ولا يمكن فهم الأخلاق الإسلامية العالية إلا ضمن إطار الشريعة ومقاصدها؛ حيث تتحول الأخلاق إلى قيم عملية، وإلى معاني إنسانية مضبوطة وموزونة بميزان الشريعة.

الأساس الاستخلافي للتسخيري للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن فهم الأخلاق وممارستها إلا في إطار ممارسة الاستخلاف في الأرض، وربطها بالعمل الصالح، وبالنفع والعمران البشري والإنساني. فالأخلاق في الإسلام تدور حول مسألة الاستخلاف والخلافة في الأرض، ولا تدور حول التأمل والتجريد والتفلسف والظلم والاستعباد والتعصب، والابتعاد عن الممارسة العملية الفعلية للخليفة في الأرض. ولهذا نجد النورسي ينصح المسلمين بالتحلي العملي بأخلاق الإسلام بدل التردد الكلامي لها. فيقول: "ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكما حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا. بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام."³²

الأساس الكوني للمسألة الأخلاقية، فرسائل النور تربط بين القيم الأخلاقية، والمعاني الأخلاقية وبين تجليات أسماء الله الحسنى وآياته الكبرى في الوجود الكوني عامة. ففي رسائل النور نرى أن الكون كله بما فيه من المخلوقات تحمل معاني أخلاقية، وتدل على جواهر أخلاقية تزخر بالحكمة. ومن هنا فإن الأستاذ النورسي يقترح علينا أن ننظر إلى المسألة الأخلاقية في إطارها الكوني حين يصبح كل شيء في الكون دليلاً ومعلماً هادياً إلى الحقائق الأخلاقية الإلهية المودعة في الكون لتكون دالة على الإتيان، والحكمة، والإبداع، والتناسق، والانسجام في النسيج الكوني العام، وبهذا يتحول الكون إلى كتاب معجز ينبغي قراءته والاهتداء بدلائله وآياته إلى خالقه سبحانه وتعالى، وإدراك المغازي الأخلاقية والتوجيهات القيمة المتفجرة من هذه المعرفة الكونية.

الأساس الإنساني للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن إدراك وتشوف، وشهود المعاني والآثار والوظائف والأدوار الأساسية للأخلاق في الحياة إلا بارتقاء الإنسان إلى المستوى الذي يجعله إنساناً حقاً يكتشف عمقه الإنساني، ويدرك غاياته الإنسانية، ويخلق بوعيه

وقبله ونفسه وروحه إلى عالم الأخلاق والقيم لا ليتأملها أو يجردھا، ولكن ليفھمھا، ويعيھا، ويعمل بھا، ويعيشھا، ويبلغھا، وينقذ بھا الإنسانية. فھنا تصبح المسألة الأخلاقية متصلة تماما بالإنسان وجوھرہ ورسالتہ التاريخية. فلا يمكن أن تعرف المسألة الأخلاقية وتقدر حق قدرھا في الوجود البشري إلا إذا تجسدت في حياة الإنسان. ولھذا نجد الأستاذ النورسي يرى أن أعظم معجزة من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم بعد القرآن هو تحقيقه لمعنى قوله تعالى: {وإنك لعلی خلق عظیم}. فبھذا التوجه تبين لنا رسائل النور أن المسألة الأخلاقية لا تأخذ حيزھا، وموقعھا، وموضعھا ضمن الحياة الإنسانية إلا إذا عشناھا، وطبقناھا، وتدوقنا أثارھا وثمراتھا، حين تتحول الأخلاق إلى الطاقة والقوة التي تبني الإنسان والمجتمع والأمة والإنسانية التي تتصف بصفتي: الإحسان والاستقامة باعتبارھما من أهم معايير الصلاح الإنساني.

فنحن إذن لا نستطيع أن نفھم ونعالج المسألة الأخلاقية ضمن نسق رسائل النور إلا إذا خلصنا مناهج دراسة الأخلاق من الأطروحات الفلسفية، والوضعية، والمادية وربطناھا بما يسميه الأستاذ النورسي بالمنظور الحرفي التوحيدي. إذ بھذا المنظور تصبح المسألة الأخلاقية جوهرية لارتباطھا بالإيمان، والتوحيد، والشريعة، والاستخلاف، والكون، والإنسان من جهة، وتجسدها في شخص النبي عليه الصلاة والسلام وظهورھا في عمق معانيھا في حياته، وأعماله، وأفعاله، وأقواله، ومنهجه، وسنته، وسائر أحواله. وبھذا ينقذ المنهج النوري قضية دراسة الأخلاق من التجريد والفوضى المعرفية إلى العمل الصالح والارتقاء بالوعي والعقل إلى حقائق الإيمان وتجلياتھا النفسية والكونية. وبھذا كذلك يقدم لنا النورسي الأخلاق باعتبارھا الحل السليم والعميق لما تعانيه الإنسانية من مشكلات.

خلاصة

من هذا الاستعراض الموجز لموضوع العولمة ومخاطرها والرد علیھا على ضوء رسائل النور نستخلص أهمية استخدام مدخل المعنى الحرفي والمعنى الاسمي لفھم العولمة، وبيان مخاطرها والرد علیھا بصورة منهجية منظمة. كما بينا موقع الأخلاق في رسائل النور ودورها الفاعل في الرد على العولمة وترشيدها بصورة سليمة. وقد تبين لنا من التحليل

كذلك أن رسائل النور تقدم لنا تصورا منهجيا للنظر في الموضوع ومعالجته ويمكن اختصار هذا التصور في النقاط الآتية:

ينبغي أولا أن نفهم أنفسنا ورسالتنا وواجبنا المتصل أساسا بخدمة الإيمان.

ينبغي أن نفهم أن هذه الأمة تستند في تصورها ورؤيتها للحياة على المعنى الحرفي والرؤية التوحيدية الكونية.

أن المدنية الغربية وما أنتجته من عولمة إنما مردها إلى المعنى الاسمي أو الرؤية الوضعية المادية للحياة.

أن نفرق في نظرتنا إلى المدنية الغربية بين ما هو إيجابي وما هو سلبي وان نمارس عملية الانقاذ للآخرين على وفق المعنى الحرفي الإسلامي.

أن نعمل على إخراج الإنسان المسلم النموذجي الذي يطبق الأخلاق الإسلامية ويعيشها في الواقع ويقدمها كنموذج حضاري للآخرين.

أن نُخضع أفكارنا وأعمالنا وسلوكياتنا ونشاطاتنا للسنن الإلهية ولطبائع الفطرة ولقوانين الكون.

أن نعمل للعالم كله الرسالة الأخلاقية العميقة للإسلام، وأن نجعل الأخلاق الحرفية الإسلامية هي أساس حياتنا.

1 بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، اللغات، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، (القاهرة: شركة سوزلر للنشر، 1993)، ص 181.

2 بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق (7)، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، (استانبول: دار سوزلر للنشر، 1995)، ص 248.

3 بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور، صيقل الإسلام (8)، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، (استانبول: دار سوزلر للنشر، 1995)، ص 57.

4 هذا لا يعني أبدا أننا ننكر أو نستنقص من الجوانب الإيجابية التي يمكن للعولمة الحالية أن تقدمها للإنسانية. وهذا كذلك هو موقف النورسي عندما تحدث عن المدنية الغربية والحضارة الغربية والحضارة المسيحية؛ حيث نجده يفرق بصورة واضحة جدا بين ما هو خير وما هو شر وبين ما هو سلبي وما هو إيجابي فيها.

5Malcolm Waters, Globalization, First Edition, (London and New York: Routledge, 1995). P. 3.

6Malcolm, Globalization, p. 3.

7 مارتن هانس وهارالد شومان، فسخ العولمة: الإعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة: عدنان عباس علي ورمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 238، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990، ص 33.

8Malcolm, Globalization, p. 3.

9 بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الكلمات (7)، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار سوزلر للنشر، 1992)، ص 143.

10 النورسي الكلمات، ص 561.

11 النورسي، الكلمات، ص 637.

12 بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري (6)، الطبعة الرابعة، (استانبول: دار سوزلر للنشر، 1999)، ص 328.

13 النورسي، المثنوي العربي النوري، 328.

14 النورسي، الكلمات، ص 646.

15 أنظر: النورسي، الكلمات، ص 144.

16 النورسي، الكلمات، ص 855.

17 بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق، ص 380.

18 بديع الزمان سعيد النورسي، الملاحق، ص ص 378-379.

19 النورسي، الملاحق، ص 122.

20 النورسي، صيقل الإسلام، ص 157.

21 هانس مارتن، فسخ العولمة، ص 34-54، بتصرف خفيف.

22 النورسي، المكتوبات، ص 474.

23 النورسي، اللغات، ص 177.

24 النورسي، اللغات، ص 180.

25 النورسي، الشعاعات، ص 242.

26 النورسي، الشعاعات، ص 600.

27 النورسي، اللغات، ص 124.

28 النورسي، الكلمات، ص 624.

29 فلا يكاد المطلع على رسائل النور يفتقد إشارة أو معنى أو توجيه أخلاقي في كل صفحة من صفحات رسائل النور؛ حتى تلك العبارات والكلمات الخاصة بالحاكمات التي أجريت للأستاذ بديع الزمان النورسي ولطالبة رسائل النور في زمانه وبعده مليئة بالتوجيهات الأخلاقية؛ حيث نرى المسألة الأخلاقية حاضرة بقوة ومشهودة بكثافة غير معتادة. أنظر إلى على سبيل المثال: كتاب "الشعاعات".

30 النورسي، الشعاعات، ص 694.

31 النورسي، المكتوبات، ص 606.

32 النورسي، صيقل الإسلام، ص 494.